الإِمَامُ الحسن البصريُّ
إمامُ الواعظينَ
(21 ـ 110هـ)

الإِمَامُ الحسنُ البَصريُّ، إمامُ الواعظينَ، وشَيخُ الزَّاهدينَ، وصاحبُ الكلمةِ الطيبَةِ الصادقَةِ، مَنْ كانَ يأسرُ بِحديثِهِ الأَسماعَ، ويَأخذُ بِمجامعِ القُلوبِ والأَلبابَ، ويَضربُ بِلسانٍ قُدَّ مِنْ صِدقٍ عَلى أهلِ الفُجورِ والمُنكراتِ والنِّفاقِ الَّذينَ اسْتشرَى خَطرُهُمْ في المُجتمعِ في عَصرِهِ، عَصرِ المُتناقضاتِ والبَذخِ والتَّرفِ.

وهوَ مِنَ العُلماءِ العاملينَ المُصلحينَ الَّذينَ أَحيا اللهُ بِهِمْ قُلوباً مَيتَةً، بَعدَ أَنْ تَطاولَ عَليها الأَمَدُ وقَسَتْ، فَهيَ كَالحجارةِ أَو أَشدُّ قسوةً.

لَقَدْ مرَّ عَلى أُمَّةِ الإِسلامِ حينٌ مِنَ الدَّهرِ وهيَ راسخةٌ تَحتَ سَيطرةِ منْ يَقولونَ بِأَلسِنَتِهِمْ ما ليسَ في قُلوبِهِمْ، وتَمادَوا في الباطِلِ، وعَكفوا عَلى الشَّهواتِ والملذَّاتِ، وجَنَحوا إِلى باطنِ الإِثمِ، وغَالوا في المُنكراتِ، ونَسَوا الخالقَ العَظيمَ الَّذي مَنَّ عليهِمْ نِعمَهُ ظاهرةً وباطنَةً، وبَعُدَت الشُّقَّةُ بَينَهُمْ وبينَ إِيمانِ السَّلفِ الصَّالحِ، وكانوا إِلى الكُفرِ ـ عَلى ما يَرى بَعضُ نُقَّادِ التَّاريخِ ـ أَقربَ مِنهُ إِلى الإِسلامِ، فانْبرَى الإِمَامُ «الحسنُ البَصريُّ» مِنْ وسَطِ

الدُّعاةِ والعُلماءِ في عَصرِهِ، يَحملُ بينَ يَديهِ مشعلَ الهدايَةِ والإِصلاحِ، يَدعو إِلى اللهِ على بَصيرةٍ، ويرفعُ مِنْ قيمةِ الدِّين والعقيدةِ الصَّحيحَةِ، ويُعارضُ تلكَ الفِئةَ الَّتي لَمْ تَكُنْ تَحملُ مِنَ الإِسلامِ سِوى اسمه، ولَمْ يَكُنْ لَها دأبٌ إِلَّا الحرصُ على الدُّنيا، والتَّنافسُ في الحياةِ، وعبادةُ المالِ، بَعدَ أنْ زَيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ حُبَّ الشَّهواتِ والقَناطيرِ المُقنطرةِ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ والخيلِ المُسوَّمةِ، وهذا أَعظمُ ما يُمكنُ أَنْ تتعرضَ لَهُ الأُمَّةُ مِنْ خَطرٍ عَلى مُستقبَلِها ومَصيرِها في الحياةِ، هذا الخطرُ الَّذي أَنبأَنا بِهِ النَّبيُّ الأَعظمُ ﷺ قبلَ حدوثِهِ.

فَقَدْ رُويَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ خطبَ قبلَ وفاتِهِ خُطبَةً أَنذرَ فيها المُسلمينَ مِنْ هذا الخَطرِ الفادحِ، فَقَالَ: «**ما الفقرُ أَخشَى عليكُمْ. ولَكِنْ أَخشَى عليكُمْ أَنْ تُبسَطَ عليكُم الدُّنيا كَما بُسِطَتْ عَلى الَّذينَ مِنْ قَبلِكُمْ، فَتَنافسوها كما نافَسوها، وتُهلِكُكُمْ كَما أَهلَكَتْهُمْ**»[1].

ومِنْ هذا الفَهمِ لِحديثِ المُصطفَى ﷺ رابطَ الإِمَامُ «الحسنُ البَصريُّ» عَلى ثُغورِ مُجتمعِ الإِسلامِ، وهوَ قائِمٌ بِواجبِ الوَعظِ والإِرشادِ، والدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ بِالكلمةِ الطَّيبَةِ حيناً، وبِكلمةِ الحقِّ الناقدةِ لِلباطلِ أحياناً أُخرَى، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ وهوَ يَحدبُ على الإِصلاحِ، وتعليمِ النَّاسِ الأَخلاقَ الَّتي يجبُ أَنْ يَتَّصفوا بِها، وتَزكيَةِ نفوسِهِمْ، وتَدريبِها على الفضائِلِ الحسنةِ، فَهوَ مِنْ مُحسني الأُمَّةِ، ومِنْ خلفاءِ الصَّحابَةِ ومِنَ التَّابعينَ لَهُمْ بِإِحسانٍ، والأُمَّةُ مَدينةٌ لَهُ بِالفَضلِ إِلى يومِ القِيامةِ.

---

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزهد.

فَمَنْ هوَ إمامُ الواعظينَ «الحسنُ البَصريُّ» رضي الله عنه، وأَينَ عاشَ، وكيفَ كانَتْ حياتُهُ؟

❁ ❁ ❁

بَعدَ وفاةِ الخليفةِ الأُمويِّ العادلِ «عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ» رضي الله عنه، ذَلكَ الخَليفَةُ الَّذي حاولَ رَدَّ الأُمَّةِ إلى الحقِّ، وإلى ما كانَتْ عليهِ في عهدِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ مِنِ اتِّباعٍ لِهدي اللهِ سبحانه وتعالى ورَسولِهِ صلى الله عليه وسلم، أَخذَت الأَوضاعُ تَتقهقَرُ مِنْ جَديدٍ، وبَدأتْ رياحُ النِّفاقِ والمُزاودةِ عَلى الدِّين تَشرئِبُّ بِعُنُقِها مُخلِّفَةً وراءَها ضعفَ الإِيمانِ في العواطف والقُلوبِ، وجفافَ الوازعِ الدِّينيِّ في الضَّمائرِ والعقولِ، وبَدأَت الولاءاتُ الشَّخصيَّةُ والقَبليَةُ تَطغَى عَلى الولاءِ لِلدِّينِ والعقيدةِ، وحلَّ تَقديسُ الحُكَّامِ والأُمراءِ محلَّ تقديسِ الإِلهِ الخالقِ العظيمِ.

وهُنا تَيَقَّظَ الإِمَامُ «الحسنُ البصريُّ» إلى هذا النِّفاقِ في العملِ والعَقيدةِ الَّذي يَطغَى عَلى الأُمَّةِ، وطَفقَ يَخصفُ على سَوءاتِ المُجتمعِ مِنْ رَقائِقِ وَعظِهِ وإِرشادِهِ ما يُقلِّلُ مِنْ غَلواءِ هذا النِّفاقِ الَّذي اسْتشرَى في شَراييِنِ الحياةِ، وصارَ بِضاعةً مُزجاةً يُتزلَّفُ بِها إلى الحُكَّامِ، ويُتقرَّبُ بِها إلى ذَوي الجاهِ والسُّلْطانِ.

وكانَ الإِمَامُ البَصريُّ في وَعظِهِ وإِرشادِهِ يُحرِّكُ القُلوبَ والعُقولَ، ويَرفعُ مِنْ هِمَمِ العبادِ نَحوَ التَّقوى في العملِ والإِخلاصِ في العبادةِ، وإِفرادِ اللهِ في التَّقديسِ وتَقديمِ الولاءِ لِلدِّينِ والأُمةِ عَلى كُلِّ ولاءٍ آخَرَ مِنْ دونِ خَشيَةِ الحُكَّامِ وذَوي الجاهِ والسُّلْطانِ.

وقَدْ ذكرَ «ابن خلكانَ» منْ هذا القبيلِ: أَنَّهُ لَمَّا ولِّيَ عُمرُ بنُ هُبيرةَ الفزاريُّ العراقَ،

وأُضيفَتْ إليهِ خُراسانُ، وذَلكَ في أَيَّامِ الخليفَةِ الأُمويِّ يَزيدَ بنِ عبدِ الملكِ سنة (103) هجريَّةً، اسْتَدعَى الحسَنَ البصريَّ ومُحمَّد بنَ سيرينَ والشَّعبيَّ فَقَالَ لَهُمْ:

إنَّ يَزيدَ خليفَةُ اللهِ اسْتَخلَفَهُ على عبادِهِ، وأَخذَ عليهِم الميثاقَ بِطاعَتِهِ، وأَخذَ عَهدَنا بِالسَّمعِ والطَّاعةِ، وقَدْ ولَّاني ما تَرونَ، فَيكتبُ إليَّ بِالأَمرِ مِنْ أَمرِهِ، فَأُقلِّدُهُ ما تَقلَّدَهُ مِنْ ذَلكَ الأَمرِ، فَما تَرونَ؟

فَقَالَ الشَّعبيُّ وابن سيرينَ كلاماً فيهِ تَقيَّةً، وقالَ ابن هبيرةَ: ما تقولُ يا حسنُ؟

فأَجابَهُ الإِمَامُ البَصريُّ: «يا ابن هبيرَةَ، خَفِ اللهَ في يَزيدَ، ولا تَخَفْ يَزيدَ في اللهِ. إنْ اللهَ يَمنعكَ مِنْ يَزيد، وإنَّ يزيدَ لا يَمنعُكَ مِنَ اللهِ، وأُوشِكُ أنْ يبعثَ إليكَ مَلكاً فَيُزيلُكَ عَنْ سريرِكَ، ويُخرجُكَ مِنْ سِعةِ قَصرِكَ إلى ضيقِ قبرِكَ، ولا يُنجيكَ إلَّا عَملُكَ.

يا ابن هبيرةَ، إنْ تَعصِ اللهَ فَإِنَّما جعلَ اللهُ هذا السُّلْطانَ ناصراً لدينِ اللهِ وعبادِهِ، فلا تَركَبَنَّ دينَ اللهِ وعبادَهُ لِسُلطانِ اللهِ، فَإِنَّهُ لا طاعةَ لِمخلوقٍ في معصيَةِ الخالقِ».

ومِنْ هذا القبيلِ ما رواهُ ابن سَعدٍ في طبقاتِهِ بِإسنادِهِ عَنْ مسلمِ بنِ أَبي الذَّيالِ قالَ: سَأَلَ رجلٌ الحسنَ وهوَ يَسمعُ وأُناسٌ مِنْ أَهلِ الشَّامِ فَقَالَ:

يا أَبا سَعيدٍ، ما تَقولُ في الفتنِ مثل يَزيدَ بنِ المُهلّبِ وابن الأَشعثِ؟

فَقَالَ: لا تَكُنْ معَ هؤلاءِ ولا معَ هؤلاءِ.

فَقَالَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشَّامِ: ولا معَ أَميرِ المُؤمنينَ يا أبا سَعيدٍ؟

فَغضبَ الإِمَامُ الحسنُ البصريُّ، ثُمَّ قالَ بيدِهِ فَخطرَ بِها، ثُمَّ قالَ: ولا معَ أميرِ المُؤمنينَ يا أَبا سعيدٍ. نَعمْ، ولا معَ أميرِ المُؤمنينَ.

❋ ❋ ❋

عاشَ الإمامُ البَصريُّ عُمراً مَديداً، وعاصرَ العُهودَ الإسلاميَّةَ الثَّلاثَةَ (الرَّاشديَّ والأُمويَّ والعَباسيَّ)، ولَقيَ مِنْ كبارِ أعلامِ هَذِهِ العُهودِ كُلَّ احترامٍ وثَناءٍ، وحَفاوةٍ وإكرامٍ. ولا رَيبَ أَنَّ الصَّحابَةَ وأُمّهاتِ المُؤمنينَ مَدحوا علمَهُ ونَوَّهوا إلى منزلَتِهِ وفَضلِهِ.

فَهذِهِ أُمُّ المُؤمنينَ الصِّديقَةُ عائِشَةُ بنتُ الصِّديقِ ﵄ عِندَما سَمعَتْ حَديثَ الإِمامِ الحسَنِ البَصريِّ قالَتْ: «مَنْ هذا الَّذي يَتكلَّمُ بِكلامِ الصِّديقينَ؟».

وفي العَهدِ الأُمويِّ لَقيَ مِنْ فُضلاءِ خُلفاءِ وأُمراءِ بَني أُميَّةَ كُلَّ مَدحٍ وإطراءٍ، فَهذا الخَليفَةُ العادلُ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يُنزلُهُ منزلاً عَليّاً، ويُسندُ إِليهِ مِنَ أَعمالِ الدَّولةِ ما هوَ أَهلٌ لَها ويَقولُ عَنهُ: «لَقَدْ وَلَّيتُ قَضاءَ البَصرةِ سَيِّدَ التَّابعينَ».

وهذا الأميرُ والقائِدُ الأُمويُّ الكبيرُ «مَسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ» الَّذي عُرِفَ بِإِخلاصِهِ وتَفانيهِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ يَرَى وجودَ الإِمامِ البَصريِّ لِلنَّاسِ هدايَةً وبَركَةً، فَيَقولُ خالدُ بنُ صَفوانَ:

لقيتُ مَسلمةَ بنَ عبد الملك في الحيرة فقال لي:

أخبرني يا خالدُ عن حَسَنِ البَصرةِ، فإِنِّي أظنُّ أَنَّكَ تَعرفُ مِنْ أمرِهِ ما لا يَعرفُ سِواكَ.

فقلت: أصلحَ اللهُ الأميرَ؛ أنا خيرُ مَنْ يُخبِرُك عَنهُ بِعلمٍ، ثم قالَ: أنا جارُهُ في بيتِهِ، وجَليسُهُ في مَجلِسِهِ، وأعْلمُ أهلِ البَصرةِ بِهِ.

قال: هاتِ ما عندَكَ.

قالَ لَهُ: إنَّهُ امرؤٌ سَريرتُهُ كعلانيتِهِ ـ واحِدَةٌ ـ وقولُهُ كفعِلِهِ، إذا أمرَ بِمعروفٍ كانَ أَعْمَلَ النَّاسِ بِهِ، وإذا نَهى عَنْ مُنكرٍ كانَ أَتْرَكَ النَّاسِ لَهُ، ولقَدْ رأيتُهُ مُستغنياً عَنِ النَّاسِ، زاهداً بِما في أيديهِمْ، ورأيتُ النَّاسَ مُحتاجينَ إليهِ، طالبينَ ما عندَهُ.

فَقَالَ مَسلمةُ: حسبُك يا خالد! كيف يضلُّ قومٌ فيهم مثلُ هذا؟!

ونَقلَ أبو حيَّانَ التَّوحيديُّ قولاً لِلعالمِ والفيلسوفِ الكبيرِ «ثابِتِ بنِ قرَّةَ الحرَّاني» يَصفُ فيهِ الإمامَ الحسَنَ البَصريِّ فقال:

«كانَ مِنْ دراري النُّجومِ عِلماً وتَقوى، وزُهداً ووَرعاً، وعفَّةً ورِقَّةً، وفقهاً ومعرفةً، يَجمعُ مجلسُهُ ضروباً مِنَ النَّاسِ، هذا يأخذُ عَنهُ الحديثَ، وهذا يَلقفُ منهُ التَّأويلَ، وهذا يَسمعُ منهُ الحلالَ والحرامَ. هذا يحكي لَهُ الفُتيا، وهذا يَتعلَّمُ الحِكَم والقَضاءَ، وهذا يسمعُ الوَعظَ.

وهوَ في جميعِ ذَلكَ كَالبَحرِ اللّجَّاجِ تَدفُّقاً، وكَالسِّراجِ الوَهَّاجِ تَأَلُّقاً، ولا تَنسَ مواقفَهُ ومَشاهدَهُ بِالأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهيِّ عَنِ المُنكرِ عندَ الأُمراءِ وأَشباهِ الأُمراءِ بِالكلامِ الفَصلِ واللَّفظِ الجزيلِ».

قالَ عَنهُ الإِمَامُ الغزاليُّ في كتابِ «إحياءِ علومِ الدِّين»: «لَقَدْ كانَ الحسنُ البَصريُّ أَشبَهَ النَّاسِ بِكلامِ الأَنبياءِ، وأَقربَهُمْ هدياً مِنَ الصَّحابَةِ، اتَّفَقَت الكلمةُ في حَقِّهِ عَلى ذَلكَ».

❋ ❋ ❋

عاشَ الإِمَامُ الحسَنُ البَصريُّ للهِ، وفي اللهِ، في كُلِّ حركاتِهِ وسَكناتِهِ، وفي كُلِّ خَطوةٍ مِنْ خَطواتِ حياتِهِ، كانَ عازفاً عَن الدُّنيا زاهداً فيها، ضارباً صَفحاً عَنْ مفاتِنِها وشَهواتِها، أليفَ الهَمِّ والحزَنِ، صَديقَ الزُّهدِ والسَّجنِ، كُلُّ هَمِّهِ هِدايَةُ الحَيارَى إلى طريقِ الهُدَى والرَّشادِ، ووَعظُ السُّكَارَى مِنَ الأَباطرةِ والأُمراءِ والولاةِ الَّذينَ أَبطرَهُمْ إِقبالُ الدُّنيا بِجاهِها ومالِها عليهِمْ فَغرَّهُمْ بِاللهِ الغَرورُ، وقامَ بِتأديَةِ رِسالَتِهِ في الدَّعْوَةِ والإِرشادِ والإِصلاحِ خيرَ قيامٍ فَنصحَ الأُمَّةَ، وكَشفَ الغُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جِهادِهِ، حَتَّى أَتاهُ مِنْ رَبِّهِ اليَقينُ.

وكانَت الكلمةُ اللَّيِّنَةُ والطَّيِّبَةُ سِلاحَهُ المَضَّاءَ في طريقِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ، ومُقارعَةِ انحرافِ ذَوي الأَهواءِ مِنْ ولاةِ الأَمرِ والأَغنياءِ الَّذين هُمْ مَبعثُ الشَّرِّ في المُجتمعِ إِذا بَطروا.

ولَقَدْ كانَ عَصرُ الإِمامِ البَصريِّ يَعجُّ بِالعُلماءِ والدُّعاةِ والوعَّاظِ، ومَعَ ذَلِكَ كانَ تَأثيرُهُمْ ضَعيفاً عَلى العامَّةِ بِسَببِ بِضاعَتِهِم العلميَّةِ الَّتي كانَتْ تَفتقرُ إلى الخوفِ والمَهابَةِ مِنَ اللهِ، والَّتي كانوا يُحابونَ بِها السَّلاطينَ والأُمراءَ، إِلَّا أَنَّ الإِمَامَ البَصريَّ تَمَيَّز عَنْ هَؤلاءِ بِتفانيهِ في إِخلاصِ العملِ لِلهِ، وبِحرصِهِ الشَّديدِ عَلى الأَمرِ بِالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنكرِ ولو

كَلَّفَهُ الأَمرُ نَفسَهُ الَّتي بينَ جَنبيهِ، فَكانَ لا يَهابُ مَخلوقاً، ولا يَخشَى سُلطاناً أَو حاكماً وهوَ يَعظُهُ أَو يَنهاهُ عَنْ مُنكرٍ أَشاعَهُ بينَ النَّاسِ.

ومِمَّا يُروَى في هذا الشَّأنِ: أَنَّ والي العراقِ «الحَجَّاجَ بنَ يوسفَ الثَّقفيَّ» المَشهورَ بِجورِهِ وظُلمِهِ وسَفكِهِ لِلدِّماءِ وبِغَدرِهِ بِالعُلماءِ الَّذينَ يَنتقدونَ أَعمالَهُ الهمجيَّةَ والوَحشيَّةَ وتَبَجُّحَهُ بِقوَّتِهِ، وكَذلِكَ بِعدمِ تَضَعضُعِهِ أَمامَ أَحدٍ مِنَ الخَلائقِ مَهما عَظُمَ شأنُهُ، قَدْ ذَلَّ جَبروتُهُ أَمامَ الحَسنِ البَصريِّ، وتواضَعَتْ نَفسُهُ لَهُ مَهابَةً وخوفاً، حَتَّى أَجلسَهُ عَلى سَريرِهِ بَعدَ أَنْ كانَ أَمرَ بِقتلِهِ كَغيرِهِ مِنَ العُلماءِ الَّذينَ حَلَّ عليهِمْ سَخَطُهُ، لأَنَّ الحَجَّاجَ أَدركَ فَحوَى الرِّسالَةِ الإِصلاحيَّةِ الَّتي يَحملُها الإِمَامُ البَصريُّ عَلى عاتِقِهِ، ونَذَرَ لَها نَفسَهُ وحياتَهُ.

رَوَى غيرُ واحدٍ مِنَ المُؤَرِّخِينَ: أَنَّ الحَجَّاجَ بنَ يوسُفَ الثَّقفيَّ بَنَى قَصراً مُنيفاً ودَعا النَّاسَ لِرُؤْيتِهِ، فَاغتَنَمَ الإِمَامُ البَصريُّ الفُرصَةَ لِيَعظَ النَّاسَ ويُذكِّرَهُمْ ويُزَهِّدَهُمْ بِعرضِ الدُّنيا، فَوقفَ فيهِمْ خَطيباً، وقالَ:

لقَدْ نَظرْنا فيما ابتَنَى أَخبثُ الأَخبثينَ، فَوَجدْنا أَنَّ فرعونَ شَيَّدَ أَعظمَ مِمَّا شَيَّدَ وبَنى أَعلَى مِمَّا بَنَى، ثُمَّ أَهلَكَ اللهُ فِرعونَ، وأَتَى عَلى ما بَنَى وشَيَّدَ. ليتَ الحَجَّاجَ يَعلمُ أَنَّ أَهلَ السَّماءِ قَدْ مَقتوهُ، وأَنَّ أَهلَ الأَرضِ قَدْ غَرّوهُ؟!

وفي اليَومِ التَّالِي دخلَ الحَجَّاجُ إِلى مَجلسِهِ وهوَ يَتميَّزُ مِنَ الغَيظِ، وقالَ لِجُلسائِهِ

وجَلاديهِ: تَبّاً لَكُمْ وسُحقاً. يَقومُ عبدٌ مِنْ عبيدِ أَهلِ البَصرةِ ويَقولُ فينا ما شاءَ أَنْ يَقولَ، ثُمَّ لا يَجدُ فيكُمْ مَنْ يَردُّهُ أَو يُنكِرُ عليهِ، واللهِ لأَسقينَّكُمْ مِنْ دَمِهِ يا مَعشرَ الجُبناءِ.

ثُمَّ أَمرَ بِالسَّيفِ والنُّطعِ، وبِإِحضارِ الإِمامِ البَصريِّ، وعندَما حَضرَ الإِمَامُ الحَسنُ البَصريُّ نَظرَ أَمامَهُ فَرأى السَّيفَ والنُّطعَ والجلَّادَ، فَحرَّكَ شَفتيهِ. ثُمَّ أَقبلَ عَلى الحَجَّاجِ وعليهِ جَلالُ المُؤمنِ وعِزَّةُ المُسلمِ، ووقارُ الدَّاعيَةِ إِلى اللهِ، فَلمَّا رآهُ الحَجَّاجُ هابَهُ أَشدَّ الهيبَةِ وقالَ لَهُ:

ها هُنا يا أَبا سَعيدٍ، ها هُنا يا أَبا سَعيدٍ، والنَّاسُ يَنظرونَ في دَهشَةٍ واسْتغرابٍ، حتَّى أَجلسَهُ عَلى سَريرِهِ. وأَخذَ يَسأَلُهُ عَنْ أُمورِ الدِّين، والإِمَامُ الحَسنُ يُجيبُهُ.

فَقَالَ لَهُ الحَجَّاجُ: أَنتَ سَيِّدُ العُلماءِ يا أَبا سَعيدٍ. ثُمَّ دَعا بِطبيبٍ وطَيَّبَ لِحيَتَهُ ووَدَّعَهُ.

ولَمَّا خرجَ الإِمَامُ البَصريُّ مِنْ عِندِهِ، تَبِعَهُ حاجبُ الحَجَّاجِ وقالَ لَهُ:

يا أَبا سَعيدٍ، لَقَدْ دعاكَ الحجَّاجُ لِغَيرِ ما فَعلَ بِكَ، وإِنِّي رأَيتُكَ قَدْ حَرَّكتَ شَفتيكَ عندما أَقبلتَ عليهِ، فماذا قُلتَ؟

فَقَالَ الإِمَامُ البَصريُّ: لَقَدْ قُلتُ: (يا وليَّ نِعمتي وملاذي عندَ كربَتي، اجعلْ نَقمَتَهُ برداً وسَلاماً عَليَّ كَما جَعلتَ النَّارَ بَرداً وسَلاماً عَلى إِبراهيمَ).

توفيَ الإِمامُ البَصريُّ سنةَ (110) هجريَّةً، بَعدَ أنْ أمضَى حياتَهُ كُلَّها في الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ، والجَهرِ بِالحقِّ أمامَ الطُّغاةِ، وبَعدَ أنْ شَغلَ النَّاسَ بِمواعظِهِ، ويُقالُ: إِنَّ الحياةَ تَعطَّلتْ في مدينةِ البَصرةِ يومَ موتِهِ، وخرجَتْ جموعُ النَّاسِ بعدَ صلاةِ الجُمعةِ في تَشييعِ

جنازَتِهِ، ومِنْ شِدَّةِ ازدحامِ النَّاسِ عندَ قبرِهِ، لَمْ يُتمكَّنْ مِنْ دَفنِهِ إِلَّا قُبيلَ الغروبِ، وتَعطَّلتْ صلاةُ العصرِ في مساجدِ البَصرةِ، ويَذكرُ ابن خلكانَ عَنْ بَعضِ مَنْ شَهدوا جنازتَهُ: «لا أَعلمُ أَنَّ صلاةَ العصرِ تُركَتْ في الإِسلامِ (في جامعِ البصرةِ) إِلَّا يَومئذٍ».

ومِنْ مواعظِهِ الَّتي يَشحذُ بِها همَمَ النُّفوسِ لِاستصلاحِ الفاسدِ مِنَ الأَعمالِ قَولُهُ:

«هيهاتَ هيهاتَ! أَهلكَ النَّاسَ الأَماني: قولٌ بِلا عملٍ، ومعرفَةٌ بِلا صبرٍ، وإِيمانٌ بِلا يَقينٍ، ما لي أرى رِجالاً ولا أَرَى عقولاً! وأَسمعُ حَسيساً ولا أَرَى أَنيساً! دخلَ القَومُ ثُمَّ خرجوا، وعَرَفوا ثُمَّ أَنكروا، وحَرَّموا ثُمَّ اسْتحَلُّوا، إِنَّما دينُ أَحدِكُمْ لَقمةٌ في لِسانِهِ، إِذا سُئِلَ أَمُؤمِنٌ أنتَ بِيومِ الحِسابِ؟ قالَ: نَعَمْ! كَذبَ ومالِكِ يومِ الدِّين، إِنَّ مِنْ أخلاقِ المُؤمنِ قُوَّةً في دينٍ، وإِيماناً في يَقينٍ، وعِلماً في حلمٍ، وحلماً بِعلمٍ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مِنْ أيِّ صنفٍ مِنَ العُلماءِ كانَ الإِمَامُ البَصريُّ؟

2 ـ مَنْ كانَ يُعارضُ الإِمَامَ البَصريَّ مِنْ فئاتِ المُجتمعِ؟

3 ـ ما هوَ الخطرُ الَّذي حذَّرَ مِنهُ النَّبيُّ ﷺ الأُمَّةَ؟

4 ـ كيفَ كانَ تأثيرُ الإِمَامِ البَصريِّ عَلى النَّاسِ؟

5 ـ ماذا قالَ الإِمَامُ البَصريُّ لابن هبيرةَ؟

6 ـ ماذا قالَتْ أُمُّ المُؤمنينَ عائِشَةُ عَنِ الإِمامِ البَصريِّ؟

7 ـ ما هوَ الدُّعاءُ الَّذي قالَهُ الإِمَامُ البَصريُّ لِيَنجوَ مِنْ فَتكِ الحجَّاجِ بِهِ؟

8 ـ ماذا حدثَ يومَ وفاةِ الإِمامِ البَصريِّ؟